

خِلاَفَةُ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ

٣ رمضان ٣٥٠ - ٢ صفر ٣٦٦ هـ

١٦ أكتوبر ٩٦١ - ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م

نهوض العلم في أيامه :

من حسن الطالع أن الذى خلف عبد الرحمن الناصر ، كان كبير أولاده وولى عهده الحكم الذى اتخذ لقب المستنصر بالله ، وكان خير خلف لخير سلف ، ونستطيع أن نقول إن حكمه كان مكتملاً لحكم أبيه ، فإذا كان الناصر رجل حكم وسياسة وحروب ، فقد كان الحكم المستنصر رجل علم وحضارة ، ولم يكن الحكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره ، فقد كان متقناً للعلوم الإسلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجازوه مروياتهم ، وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ في القصر مكتبة لا نبالغ إذا قلنا إنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية في العصور الوسطى ، فقد بنى لها بناءً خاصاً ، وأقيم فيها رجال المكتبات من مفرسين ومسجلين ومنظمين ، وكانت فهارسها تقع في ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين ، وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف المليون مجلد ، وأنشئ لها مصنع خاص بالتجليد ، وعمل فيها عشرات النساخين ، وكان للحكم مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهورها ، وكان يجيز على ذلك بالمال الكثير ، وهناك كتب شرقية كثيرة كان الحكم أول من قراها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً مجيداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالا لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتاب « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهاني ، فقد أرسل إليه الحكم ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل .

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف في الانصراف إلى العلم ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي ، وهناك وجه من الحق في هذا

النقد ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال ابن أبي عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف في الأمر أن الحكم كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ويعلق حواشيها ويستدرك على مؤلفيها بخط يده ، وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم وملاحظاته ، وكان العلماء بعد الحكم يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تُعتمد ، ولم يقتصر الحكم على علوم العرب بل عنى بكل العلوم ، وتحت إشرافه ترجم « قاسم ابن أصبغ البياني » و « حفص بن ألبر » كتاب التاريخ « لهيروشيوش » من اللاتينية ، وترجموا له كتاب « ديو سقوريدس » في الطب من اليونانية ، وكان يرسل الناس إلى شتى البلاد ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار ويحتفظ بهذه الدراسات في مكتبه ، ومن أمثلة ذلك رحلة « إبراهيم الطرطوشي » الإسرائيلي في بلاد أوربا ورحلات محمد بن يوسف الوراق في أفريقية وقد كثرت المكتبات في الأندلس في أيام الحكم ، وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة ، وقد اشتغل فيها النساء في البيوت بصفة خاصة ، واشتهرت الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالاسم ، وكانت نسخ القرآن التي تكتبها الأندلسيات مضرب المثل في الدقة والجمال ، وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مظهر الرقى والترف ، فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعي .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى ، واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة ، وكان الورق الشاطبي مشهوراً في العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه ، وقد عرف عرب الأندلس صنفي الورق اللذين عرفا في العصور الوسطى وهما الكاغد ، وهو ورق عادي ، والرقاق وهو ما يعرف بالبارشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش في متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق ، وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الأناجيل ووثائق الكنيسة عليها ، ثم قلّد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تنفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام وشمع للاختام وسكاكين لقطع الأقلام وما إلى ذلك . وقد نبغ الأندلسيون في صناعة الأحبار وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير المطبوخ والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغاب ، ويسمونه الأنبوب وريش الطيور ، بل صنع بعضهم أقلام حبر ، أى أقلاماً تُملأ بالحبر وتصنع بهيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء . وتفننوا في صنع المحابر من الزجاج والبلُّور والرخام ، وكانوا يزخرفون المحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحفر مع بعض الشعر أحياناً ، واشتهروا بمحابر محكمة الصنع تُعمل على هيئة الخنجر في قرابه ، لتوضع في حزام الثوب مع أقلامها وأنواع غيار التجفيف .

ونشأت في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق السوراقين ، فأما السوراق فهو تاجر الكتب أى المخطوطات في ذلك العصر ، وكان المفروض في السوراق أن يكون عالماً بالكتب وأقدارها وخطوطها بحيث يستطيع تلبية حاجات عملائه ، وفي العادة تجد السوراق من أهل الأدب لكثرة مزاولته النظر في الكتب .

وأما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو ما يسمى بالإنجليزية

Stationary

و في بعض البلاد العربية يسمى الدكان بالقرطاسية أى التى تباع القرطاسية والأقلام والأحبار والكراسات . .

سياسة الحكم المستنصر :

وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد في أمور ملكه، وقد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة اشتغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف الدولة ، فنهض الحكم بالجزو ابتداء من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م. وأوغل في أرض ليون ، فلم تجئ سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م . حتى كانت قوات قرطبة قد أوغلت في أراضي ليون ونبرة واستولت على قلاع كثيرة من قلاعها وأرغمت هاتين المملكتين وغيرهما من الإمارات النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة . وابتداء من سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م . بدأت سفارات هذه الممالك تتوافد على قرطبة . وقد وصف لنا

ابن حيان مؤرخ الأندلس استقبل هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع في هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة في شبه الجزيرة كلها ، بل أرسل يوحنا الشمشيق Tsimiskes امبراطور بيزنطة ، سفارة إلى قرطبة سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢ م . وكذلك أرسل أوتو الثاني امبراطور ألمانيا - الذى خلف أوتو الأول - سفارة لتجدد المودّة والصدقة مع قرطبة .

حروب الحكم في المغرب :

وظهر في أيام الحكم أمر قائده الكبير غالب الناصرى الذى يلقب بفارس الأندلس ، وهو أول نموذج من الجند الصقلبي الذى وصل إلى مراتب القيادة العليا، التى كانت قبل ذلك وقفاً على أبناء البيوت الموازية التى ذكرناها. وكان غالب في شبابه قائداً ماهراً مرهوب الجانب لا تجرؤ إمارة نصرانية على تحدى قواته . وكان مقامه الدائم في مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور ، أى الجيش المرابط على الحدود الشمالية ، وكان في العادة جيشاً ضخماً مُعدّاً أحسن إعداد ومُدرباً أكمل تدريب ، وكانت كتلة الجيش الرئيسى تقيم في مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، وكانت هناك فرق إضافية في الحصون الكثيرة التى أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها مجريط (وهى مدريد الحالية) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام . Alcala de Henares ووادى الحجارة Guadalajara و Siguenza وسغونشة وأنيشه Atienza والمنار Almenar وقلعة النسور Calatanazor وسوريا Soria وأوسما Osma وغرماج Gormaz وناجرة Najara وكلها في حوضى الدويرو والأبرو الأعلىين وقرب منابعهما ، وهى تقع على ثغور جبال الشارات أو جبال وادى الرمل Guadarrama التى كانت تعتبر الحد الطبيعى لبلاد الأندلس ، ومن هذه الحصون عمل قواد المسلمين على سيادة كل حوض الدويرو . وكانت هذه المناطق خلاءً تقريباً ، ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية ونبرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم .

وإلى آخر أيام الحكم المستنصر ظلت سيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .

وكان الحكم حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون في أحسن حالات المنعة والاستعداد . وكان يشحنها دائماً بالمؤن والأسلحة . وبعض هذه الحصون مثل غرماج كان أشبه بمدينة كاملة فيها مخازن الطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرابط الخيل ، ولا زال الكثير من بقايا تلك الحصون قائماً حتى اليوم .

وكان للخلافة إلى جانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة ، وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه ، وهو ينيب عنه من يريد من قواده ، فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتي جيش الثغور وجيش الحضرة .

وإذا جاء وقت النفير أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالاستعداد فبدأ عملية واسعة النطاق تسمى « البروز » فتتوافد قوات الكور المجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى « فحص السرادق » ، ثم يخرجون سرادق الأمير ويجعلونه وسط الفحص وتضرب فرق الجنود خيامها وتقبل قوات المتطوعة ، وكانت في العادة ألوف من الناس الذين يخرجون للجهاد حسباً لله تعالى . وتستمر مدة البروز شهراً ثم يخرج الخليفة بجنده الصقلبي وحرسه وفرق الكور المجندة والمتطوعة وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له جيش الثغور ، وهنا تبدأ « الصائفة » أى العملية العسكرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو في أرض العدو .

ولكن الموضوع الذى شغل الحكم أكثر من غيره كان أمر الفاطميين في المغرب ، وقد بالغ الحكم في الاهتمام بذلك ، إما لأنه رأى في محاربتهم الفاطميين جهاداً ، أو لأن نصحاءه صوروا له الخطر الفاطمى على صورة أكبر مما ينبغى ، والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الدينى وتضلعه في الفقه السننى وحماسه لمذهب مالك ، كل هذا جعله ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الإسماعيلية ، على أنهم زنادقة يحل حريهم ويتعين على إمام الجماعة أمر محاربتهم أينما كانوا ، فكان لهذا ميالا إلى مدافعتهم عن المغرب الأقصى خشية أن ينتقل مذهبهم إلى الأندلس . ورأى بعض وزرائه في ذلك فرصة للكسب دون حساب ، فزينوا له أمر محاربة الخطر الفاطمى في المغرب خاصة ، وقد نهض الأدارسة من جديد على يد الحسن بن كنون ودخلت دولتهم في دورها الثانى ، لأن بقية منهم كانت قد اعتصمت في قلعة « حجر

النسر» جنوبى تطوان ، وتولى أمرهم - أيام الحَكم - القاسمُ بن محمد بن القاسم ابن إدريس المعروف بالحسن بن كنون ، وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات من الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة ، وكان الحسن بن كنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ليرضى الحكم المستنصر ، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شىء غير ذلك . وقد طال الأمر بالحكم وهو يرسل القوات وينفق الأموال ، حتى لقد استدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفارس الأندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب ، وأنفق الحكم في ذلك مالا جسيماً ولم يؤد الأمر بعد ذلك إلى نتيجة تذكر ، وقد أسف الحكم في أخريات أيامه على ما أنفق من مال وما ضحى به من رجال في هذا المقصد ، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية ، وكانت أولى بعنائه وأحق بالمراقبة الدائمة .

وهنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله في سياسته الأفريقية ، فقد كان الناصر لدين الله يعرف دائماً الحد الذى يقف عنده في كل ميدان ، ف فيما يتصل بالمغرب ، اكتفى بالاستيلاء على سبته وطنجة ومليلة واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية ، وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تناوئى الحكم الفاطمى . وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ، ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالاً فخماً ، ويفتح أبواب العمل في جيشه للمرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يفدون عليه في جماعات كبيرة ، وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالى وأنفق في ذلك جهداً ضخماً ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف ثغوره الشمالية .

وقد قضى الحكم سنواته الأخيرة في العناية بالعلوم والآداب ، فنظّم التدريس في المسجد الجامع حتى أصبح هذا وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها ضروب العلوم ، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد ، وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف ، وخصّص أموالاً جزيلاً للطلاب فأعطيت المكافآت والمعونات للمحتاجين منهم ، وعمد الحكم في إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز ، وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شئون جامعة قرطبة ، ورفع نفراً من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم ، من أمثال

« أبى بكر بن معاوية القرشى » أستاذ الحديث « وأبى بكر بن القوطية » أستاذ الأدب والنحو ، « وأبى بكر الزبيدى » أستاذ اللغة « ومحمد بن أحمد بن مفرج » أستاذ علوم القرآن . وقد أسبغ الحكم رعايته على غير المسلمين من العلماء مثل « ريثيموندو » الألبيرى أسقف النصارى المسمى « بربيع بن زيد » ، وكان متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان يقوم بوظيفة المترجم الرسمى أو كبير المترجمين للحكم .

وفى أوائل سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م . شعر الحكم بالشيخوخة تدب فى أوصاله ، ومع أن سنه كانت فى الرابعة والستين إلا أن علانم الضعف تزايدت عليه ، فدعا الناس إلى بيعه ابنه هشام وكان لا يزال طفلاً ، وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم كان شديد التعلق بولده عظيم الرغبة فى أن يستمر الملك فى نسله ، وقد انتقده الناس بسبب ذلك وحمل عليه « ابن حيان » المؤرخ ، لأن البيعة تمت بسعى صبح البشكنسية أم هشام وزوجة الحكم الأثيرة على نفسه . وكانت جارية بشكنسية رائعة الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تخشى أن يصير العرش بعد الحكم إلى أحد إخوته لأن ابنها كان طفلاً ، ولهذا فقد اتصلت سراً بنفر من كبار رجال الدولة مثل جعفر المصحفى الحاجب ومساعد محمد بن أبى عامر لكى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم ، وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً متطلعاً شديد الذكاء ، وقد وصل فى أواخر أيام الحكم أن أصبح صاحب السكة والمواريث ، أى المشرف على دار سك العملة وعلى الأوقاف ، وتهيات له بذلك أموال كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير .

وتوفى الحكم المستنصر فى ٢ صفر ٣٦٦ هـ / ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م ، وبموته اختفى آخر العظماء من بنى أمية الأندلسيين ، وقد كان الحكم إلى جانب علمه وخبرته بشئون الدولة ، رجلاً كريماً طيب القلب لا يكاد يغضب على الرجل حتى يسارع بالعفو عنه ، وكان خيراً جداً كثير الصدقات دائم البر بالفقراء ، فكان لا يترك مناسبة إلا فرق الأموال الجليلة ، وقد نعم الناس فى عصره بأمان واطمئنان لم يعرفوهما فيما بعد .

ومن أعظم أعمال الحكم توسيعه المسجد الجامع ، وقد بدأ به فى أيام أبيه الناصر ولكنه تم فى أيامه ، وتعتبر تلك الزيادة الثانية تنويجاً لأعمال الناصر وابنه الحكم المستنصر فى الناحية الحضارية .